بقايا الفصاح

الأستاذ شفيق جبري

من طرائف الأمور أن تعيش في لغة العامّة لفظة وهي غاية في الغرابة ، وأن تموت هذه اللفظة الغريبة في لغة الخاصّة أي في لغة الأدب ، فإن لفظة : فلان مبرطم تستفيض في أحاديثنا ونكاد لانرى لها أثراً في كتابات هذا العصر . ماذا تريد العامة بقولها : فلان مبرطم ؟. إذا قال أحدنا : ذهبت إلى فلان فوجدته مبرطماً أراد بذلك معاني كثيرة ، فالمبرطم العابس ، المنقبض ، الغضبان ، إذا حيّاه أحد فلا يردّ عليه التحيّة . أفرأيناخصب معاني هذه المادّة في لغتنا ؟ فلنبحث الآن عن بعض معانيها في معجم الفيروزابادي .

يقول صاحب القاموس المحيط : « البرطمة الانتفاخ غضباً ، وتبرطم تغضّب من كلام ، وبرطمه غاظه » . أفلا نرى تشابهاً بين معنى هـذه المادّة في اللغتين الفصحى والعامّة ؟ ولكنها في لغة العامة أخصب دلالةً وأفسح آفاقاً ، ولا أبالغ إذا قلت : إن هذه المادة في لغة العامّة لاتكاد تقوم مقامها مادة أخرى في الدلالة على معناها في مصطلحات العامّة ، ولكن من الذي يستعملها في كتابته إذا كان كاتباً ، أو في شعره إذا كان شاعراً

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وإذا استعملها أحد فلا ينجو من ناقدٍ يرميه بالميل إلى استعمال الغريب الذي يحتاج إلى شرح وتفسير ، وقد تكون لفظة المبرطم شائعة في دمشق مثلاً ولا تكون شائعة في بلدٍ آخر من بلاد العرب ، ففي كل بلدٍ مصطلحات خاصة للعامة في لغتها يفهمها أهل البلد ولا يفهمها أهل بلد آخر .

وقد وردت لفظة المبرطم في أبيات رواها صاحب الحماسة البصرية ونقلها الدكتور صلاح الدين المنجد في كتابه « الحياة الجنسية عند العرب » :

مبرطماً برطمةَ الغضبان

من هذا كله نستنبط أن مادة البرطمة تنطوي على الغضب وما يصحب هذا الغضب من عبوس وانقباض وتجهّم وما شابه ذلك .

وإذا انتقلنا من الألفاظ الدالّة على ظواهر النفس كالغضب مثلاً فقد نستطيع أن نمرّ بألفاظٍ تدلّ على الملابس . ونحن نعلم أن الملابس قد تتغير من عصرٍ إلى عصرٍ ، ففي الأيام التي نعيش فيها ملابس لم يعرفوها في الماضي ولذلك لانعلم لها أسماءً في لغتنا لأن الأسماء توضـــع عادةً لمسمّيات معروفة ، وفي الأيام التي عاشوا فيها في الماضي ملابس لانعرفها في الحاضر ، وقد تبهم علينا أسماء بعضها وإن كنا نجـــد لها تفسيراً في كتب اللغـة .

من الألفاظ الشائعة في لغة العامة لفظة : الشّاشيّة ، فقـــد يحتاج أحدنا إلى تغطية إبريق ماءٍ بغطاءٍ خفيف أو شيء آخر من بعض المآكل أو قد يحتاج إلى أن يضع على رأسه مثل هذا الغطاء بعـد أن يبلّه بالماء أو بالخلّ ، والأمثال في ذلك كثيرة . والخلاصة قد يحتاج أحدنا إلى مانسميه : الشاشية ، وكلنا يعرف ماهي الشاشية ، ولكن قد يجوز أنّا لانعرف أن هذه المادة فصيحة ، فقد وردت في شعر البحتري في هجائه الحارثي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يامَنْ رأى الدامرَ يختال في شاشيّةٍ شَوْهاءَ مُغْبَرّة

وإذا تركنا الملابس وجئنا إلى المآكل عثرنا على ألفاظٍ تعيش في بعض القرى ، ففي القرية التي أعيش فيها تنانير يخبزون فيها الخبز ، وإن كانت هذه التنانير أخذت تقل يوماً بعد يوم ، وأخذ أهل القرية يشترون خبزهم من الأفران وشتّان ما جودة خبز التنانير وجودة خبز الأفران ، فمن خبز أهل القرية ما يسمونه : الفرنية ، وهي لجودتها تؤكل بعد خروجها من التنور بلا أدم . وقد وجدتُ هذه اللفظة في بعض كتب الأدب القديمة ولكني آسف على أنني لم أدوّن في دفتري مكانها ، على أنا نجد في القاموس المحيط : « الفرن بالضم : المخبز يخبز فيه الفُرْني ، لخبز غليظ مستدير » . وقد استعملت هذه اللفظة على المجاز ، فالفرني أيضاً الرجل الغليظ .

أفرأينا كيف تعيش في لغة العامّة طائفة من الألفاظ الدالة على المآكل وهي فصيحة مثل الفرنية ، وكيف تموت في لغتنا ألفاظ قديمة تدلّ على المآكل ونحن لانعرفها على حقيقتها مثل اللوزينج وهي معرّبة .

وإذا فرغنا من المآكل والملابس فلننتقل إلى لغة العيون .

من أقوال العامّة : فلان عينه تغزل ، وهم يريدون بذلك على ما أعتقد كثرة حركتها وقلّة استقرارها . فالعين التي تغزل هي العين الحائرة التي وصفها المتنبي في قـــوله :

أدرنَ عيوناً حائراتٍ كأنّها مركّبةٌ أحداقها فوق زئبقِ

وقد جاءت هذه المادة في شعر البحتري في هجائه لابن المغيرة :

مالعينيك تغـــزلان إذا ما رأتا في الرؤوس رأساً صليعا

ولم أهتد إلى الصلة بين المعنيين : الفصيح والعامي ، فلم أجد في

هدية مجمع اللغة العربية بالقاهرة مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اللغة غزل بمعنى حار أو تحرّك أو ما مائل ذلك ، وإنما الغزالة : الشمس لأنها تمدّ حبالاً كأنها تغزل . ومغازلة النساء محادثتهنّ والاسم الغـزل ، فهل من صلةٍ مجازية بين هذا الغزل وبين العين التي تغزل ، ولا ريب في أن للعين شأناً كبيراً في مغازلة النساء ، وعلى كل حالٍ فلنترك لعلماء اللغة تعليل هذا الأمر .

وما دمنا نشير إلى العين التي تغزل فلا نرى بأساً بالإشارة إلى العين التي تبصبص . فهذه المادة : بصبص ، شائعة في لغة العامة ، وقد يجعلون لها معنى خاصاً فإذا قالوا : فلان يبصبص فكأنهم يريدون بذلك أنه يسترق النظر إلى شيء ، إمّا إلى مجتمع نساء وإما إلى غير ذلك ، ولا يبعد معنى هذه المادة العامي عن المعنى الفصيح في اللغة ، فالبصّاصة العين لأنها تبصّ ومعنى بُصّ يبُصّ بصيصاً برق ولمع . ومن معاني بصبص يقال : بصبص الجروُ فتح عينيه والكلبُ حرّك ذنبه .

وقد جاءت هذه المادة في شعر البحتري في بعض قصائده في مدح المهتدي بالله .

وبَصْبَصَ أهل العَيْث حين هداهم أَخو سَطَواتٍ ما يُبِلُّ سليمُها

والخلاصـة ان بصبص العامية أصلها فصيح والمعنيان الفصيح والعامي متشابهان أو متقاربان ، وفي بعض بلاد العرب كفلسطين ومصر يقولون : بُصّ بالأمر أي انظر .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net